

الإشكال المردود في مشيئة سورة هود

د. عبد الرحمن بن عابد الغريبي

أستاذ مساعد جامعة الطائف

المقدمة

الحمد لله جل جلاله وتقدست أسماؤه، المتعالي عن الشبيه والنظير، القائل في محكم التنزيل: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ
الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (١).

ثم الصلاة والسلام على الهادي البشير والسراج المنير، الذي أكمل لنا الدين وتركنا على المحجة البيضاء ليلها
ونهارها سواء لا يزيغ عنها إلا هالك، ثم أما بعد....

فمن الأمور الخطيرة التي مرت على المسلمين قديماً وحديثاً الإشكالات في بعض آيات كتب ربهم -تبارك
وتعالى- وهذا الإشكال إما بسبب جهلهم وعدم مطالعتهم لكلام المفسرين، أو الدسائس من أعداء الإسلام ممن
يريد التشكيك في كتاب ربنا -تبارك وتعالى- وزعزعة ثقتهم بكتاب ربهم.

والمتبصر في كل ما أشكل على المسلمين من آيات القرآن يجد أن دفع هذا الإشكال لا يحتاج إلى جهد كبير،
ولا إلى التبحر في كتب التفسير؛ لأن الله -عز وجل- خاطبنا بما تعيه قلوبنا وبلسان عربي فصيح، وبين أن هناك
في كتابه آيات محكمات وأخر متشابهات، فمن آمن بذلك حق الإيمان سلم من الوقوع في الزلل والشك، ومن دخل
قلبه شيء من ذلك رجع لكلام العلماء ليجلي ذلك الوهم الذي أصابه.

وفي الغالب نجد أن الرد على الإشكال بأبسط عبارة كما حدث لمعاوية بن أبي سفيان حين قال لابن عباس -
رضي الله عنهم أجمعين-: لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها، فلم أجد لنفسي خلاصاً إلا بك. قال:

وما هي يا معاوية، فقرأ قوله تعالى: ﴿وَذَا التَّوْنِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنكَدَى فِي الظُّلُمَاتِ

أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وقال: أو يظن نبي الله أن لا يقدر عليه؟ قال: هذا
من القدر لا من القدرة^(٢)، فانظر إلى سرعة البديهة عند ابن عباس، ثم الإنجاز في العبارة التي جلت ما كان عند
معاوية من شكك.

الفصل الأول: معنى الإشكال في آيات القرآن الكريم.

معنى الإشكال: يقول ابن فارس: الشين والكاف واللام معظم بابه المماثلة، تقول هذا شكل هذا أي: مثله،
ومن ذلك يقال: أمر مشكل، كما يقال: أمر مشتبه أي: هذا شابه هذا وهذا دخل في شكل هذا^(٣).

(1) سورة النساء / 82

(2) انظر الكشف للزمخشري 132/3. والآية من سورة الأنبياء 87.

(3) انظر مقاييس اللغة لابن فارس 205/3

التعريف الاصطلاحي لمعنى الإشكال في القرآن عند أهل التفسير وعلوم القرآن الكريم ويراد به: الآيات القرآنية التي أشكل معناها على المفسرين، ولا يعرف معنى هذا الإشكال أو لا يدفع هذا الإشكال إلا بعد تأمل الآية وطلب معناها من داخل الآية أو خارجها.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجْنَا مَثَلَهُمْ﴾⁽⁴⁾ والمتشابه من القرآن ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره إما من حيث اللفظ أو من حيث المعنى، فقال الفقهاء: المتشابه ما لا يبنى ظاهره عن مراده، وحقيقة ذلك أن الآيات عند اعتبار بعضها ببعض ثلاثة أضرب: محكم على الإطلاق، ومتشابه على الإطلاق، ومحكم من وجه متشابه من وجه. يقول أبو القاسم في مفرداته: فالمتشابه في الجملة ثلاثة أضرب: متشابه من جهة اللفظ فقط، ومتشابه من جهة المعنى فقط، ومتشابه من جهتهما. والمتشابه من جهة اللفظ ضربان: أحدهما يرجع إلى الألفاظ المفردة، والثاني يرجع إلى جملة الكلام المركب⁽⁵⁾.

ومن أمثلة ذلك: ما وقع من إشكال لمعاوية بن أبي سفيان حين قال لابن عباس -رضي الله عنهم أجمعين-: لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها، فلم أجد لنفسي خلاصاً إلا بك. قال: وما هي يا معاوية، فقرأ قوله تعالى: ﴿وَذَا التَّوْنِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَكَاذَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾⁽⁶⁾ وقال: أو يظن نبي الله أن لا يقدر عليه؟ قال: هذا من القدر لا من القدرة⁽⁶⁾.

الفصل الثاني: سبب الوقوع في الإشكال.

أما عن سبب الوقوع في الإشكال فهناك عدة أسباب:

الأول: اعتقاد أمرٍ مخالف للكتاب والسنة.

الثاني: اختلاف الموضوع في الآيات.

الثالث: اختلاف الموضوع والمكان للآيات.

الرابع: وقوع المخبر به على أحوال وأطوار مختلفة.

وذلك ما جاء عن انقلاب عصا موسى -عليه السلام- في أحوال متعددة، فجاء في موضع على أنها حية تسعى

كما في قوله تعالى: ﴿فَالْقَنَاهُ فِإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾⁽⁷⁾، وفي موضع آخر كأنها جان كما في قوله تعالى:

(4) سورة آل عمران 7

(5) انظر المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد 1/ 254

(6) انظر الكشف للزمخشري 3/ 132. والآية من سورة الأنبياء 87.

(7) سورة طه 20

﴿ فَلَمَّارَهَا تَهْتَرُ كَانَهَا جَانٌّ ﴾⁽⁸⁾، وفي موضع قال عنها ثعبان مبین كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ

تُعَبَّانٌ مُبِينٌ ﴾⁽⁹⁾

الخامس: اختلاف جهة الفعل.

السادس: تعدد القراءات في الآية.

السابع: توهم تعارض الآية أو الايات مع الأحاديث النبوية.

الثامن: توهم استحالة المعنى.

التاسع: خفاء المعنى.

العاشر: غرابة اللفظ.

الحادي عشر: مخالفة المشهور من قواعد النحو والعربية.

الثاني عشر: الإيجاز والاختصار.

الثالث عشر: احتمال الإحكام والنسخ للآية.

الرابع عشر: تردد الآية بين أن يكون لها مفهوم مخالفة أو لا.

الفصل الثالث: الواجب علينا عند ورود الإشكال.

وهنا يرد سؤال وهو: ما الواجب علينا عند ورود إشكال في آيات ترم بنا؟

الواجب علينا أولاً: لا بد أن نؤمن بأنه لا يمكن أن يرد إشكال بين آيات القرآن الكريم، فقد زكى ربنا كتابه

بقوله: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾⁽¹⁰⁾ فلا ريب ولا شك ولا إشكال في كتاب ربنا -تبارك

وتعالى-.

ثانياً: لا بد أن نعرف أن الإشكال هو بسبب من الأسباب السابقة الذكر فلا بد أن نراجع فهمنا وما هو السبب في

وقوعنا في هذا الإشكال.

ثالثاً: لا بد من دفع الإشكال بإحدى الطرق التالية:

الأول: تحرير وجه الإشكال، والمراد به أن نعرف الموضوع الذي وقع فيه الإشكال، ثم نجلي هذا الإشكال ونوضحه

وما وجه الإشكال فيه وما سبب هذا الإشكال.

ومثال ذلك: ما وقع في هاتين الآيتين، الأولى قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾⁽¹¹⁾، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾⁽¹²⁾، والناظر في

(8) سورة النمل 10

(9) سورة الشعراء 32

(10) سورة البقرة 2

(11) سورة القصص 56

(12) سورة الشورى 52

هاتين الآيتين يظن أن بينهما تعارض، ففي الآية الأولى: ﴿لَا تَهْدِي﴾، وفي الآية الثانية: ﴿لَهْدَى﴾. وهذا هو المقصود بتحرير الإشكال حيث بينا موضع الإشكال والتعارض في الآيتين.

الثاني: معرفة سبب النزول، ومن أسباب الوقوع في الإشكال والتوهم في آيات القرآن عدم معرفة أسباب النزول، حيث أن سبب النزول قد يوهم أن في الآيات أشكال، لكن عند معرفة سبب النزول ينجلي الإشكال في الآيات.

الثالث: رد التشابه المشكل إلى المحكم، وإلى العالم به، مع الإيمان والتصديق، فقد ذكر الله في كتابه أن فيه محكم وفيه متشابه، ثم بين لنا أن من ورد عليه إشكال أن لا يتبع ما تشابه منه حتى لا يقع في الفتنة، ولكن يرده

للمراسخين في العلم الذين يجلون ما أشكل فهمه، حيث قال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (13)

الرابع: اعتبار طريقة القرآن وعادته في دفع الإشكال، وللقرآن الكريم طرق في دفع الإشكال وذلك إما بطرح السؤال ثم الجواب عليه، أو تبيان ما أشكل على الناس في موضع آخر.

مثال ذلك في سورة التين عند قوله تعالى: ﴿فَأَمُّهُ هَكَوِيَةٌ﴾ (٩) وهنا يظهر إشكال للسامع، فيطرح الله

السؤال بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ﴾ (١٠)؟ ثم يجيب عن هذا التساؤل بقوله: ﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾ (١١) (14)، وهنا يكون جلاء للإشكال الذي ورد في هذه السورة.

الخامس: جمع الآيات ذات الموضوع الواحد، وفي جمع آيات الموضوع الواحد يتجلى لنا ما يحدث من إشكال في الآيات. مثال ذلك: ما يكون في عرصات يوم القيامة وحال الناس في ذلك اليوم، فنجد القرآن يذكر في موضع أن

الناس لا يكلم بعضهم البعض كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْئَلُ حِمِيمٌ حَمِيماً﴾ (١٠) (15)، ثم نجد في موضع آخر أن

أهل الموقف يكلم بعضهم بعضاً كما في قوله تعالى: ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ (١٣) (16)، وهنا

ينجلي الإشكال عند جمع موضوع الآيات حول أحوال يوم القيامة، فيتضح لنا أن في موضع قبل النفخ في الصور يتكلم الناس بعضهم مع بعض، لكن بعد النفخ في الصور لا يكلم بعضهم البعض من هول الموقف.

السادس: النظر في السياق، ومن أشكل عليه شيء في القرآن لا يستعجل في إصدار الحكم حتى ينظر إلى سياق الآيات فقد يكون فيها الجلاء لما أشكل عليه.

السابع: تلمس الأحاديث والآثار الصحيحة الدافعة للإشكال، فكما نعرف أن السنة في تأتي في الأهمية بعد القرآن الكريم ولا تقل عنه، فهي شارحة لما أجمل في القرآن وشارحة لما أوجز فيه. ما جاء في حد الزنا، حيث كان في

(13) سورة آل عمران 7

(14) سورة القارة 9-10-11

(15) سورة المعارج 10

(16) سورة طه 103

أول الأمر أن المرأة الزانية تمسك في البيت حتى الممات، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي يَأْتِيكِ الْفَحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾⁽¹⁷⁾، بعد ذلك جاء التوضيح لحال المرأة الزانية في قوله -صلى الله عليه وسلم-: (خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة والثيب بالثيب جلد مائة والرجم)⁽¹⁸⁾.

الثامن: الإعراب وأثره في بيان المشكل، والإعراب بابه واسع ومجاله خطير، حيث إنه يجب على المطالع لكتاب الله حين يحدث له إشكال من الناحية الإعرابية أن ينظر فيما كتبه علماء اللغة حول إعراب القرآن الكريم إن كان قليل الدراية بالإعراب، لأنه قد يعرب من فهمه فيقع في متزلق عظيم يؤدي به إلى الشرك والعياذ بالله.

التاسع: الجمع بين الآيات بإعمال قواعد الترجيح عند المفسرين، وهذا بابه عظيم حيث إن لقواعد التفسير والترجيح ما تنجلي به الإشكالات وما يتوهم فيه التعارض.

العاشر: النسخ، ولا بد عند وجود إشكال أو توهم التعارض بين الآيات من معرفة الناسخ والمنسوخ فقد نسخت بعض الآيات حكماً وبقيت لفظاً، فيظن البعض عند قراءة الآية المنسوخة أنها تعارض آية أخرى، حينها يقع التوهم في كتاب الله تبارك وتعالى، وهذا سببه قلة العلم بعلوم القرآن الكريم.

الحادي عشر: التوقف، وهذا يعني التسليم التام لأمر الله تبارك وتعالى، والإذعان بأن كلام الله لا يمكن أن يحصل فيه تعارض أو إشكال، وهنا يخالف الشخص نفسه ويدعن لكلام ربه. فهذا أبو بكر -رضي الله عنه- يقول: أي سماء تظلمي وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم⁽¹⁹⁾.

الفصل الأول: تحرير وجه الإشكال ودفعه الواقع في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾^(١٠٦) خَلِيدَيْنِ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ^(١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِيدَيْنِ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُورٍ^(١٠٨).

وهنا يجدر بنا أن نبين الإشكال الذي وقع في هذه الآية، حيث إن تحرير الإشكال هو السبيل لمعرفة ثم لرد الشبهة الواردة في الإشكال.

فنقول: الكلام في هذه الآية عن أصحاب النار حيث وصفهم الله بقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾. يقول الماوردي: الزفير والشهيق فيه أربعة أوجه: أحدها: أن الزفير الصوت الشديد، والشهيق الصوت الضعيف، قاله ابن عباس. الثاني: أن الزفير في الحلق من شدة الحزن، مأخوذ من الزفير، والشهيق في الصدر، قاله الربيع بن أنس.

(17) سورة النساء 15

(18) أخرجه مسلم باب حد الزنا رقم 1690.

(19) أخرجه ابن أبي شيبه 136/6.

الثالث: أن الزفير تردد النفس من شدة الحزن، مأخوذ من الزفر وهو الحمل على الظهر لشدته، والشهيق النفس الطويل الممتد، مأخوذ من قولهم جبل شاهق أي طويل، قاله ابن عيسى.
الرابع: أن الزفير أول نفيق الحمار، والشهيق آخر نفيقه⁽²⁰⁾.

ثم يقول الله تبارك وتعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾^(١٧). هنا جاء ذكر للمشيمة في حال أصحاب النار، ولكن حالهم لا يشكل كثيراً؛ لأن أصحاب النار أحوالهم تتغير، فلا يكون في ذكر المشيمة إشكال أبداً.
يقول الماوردي: فيه ثمانية تأويلات:

أحدها: خالدين فيها ما دامت سماء الدنيا وأرضها إلا ما شاء ربك من الزيادة عليها بعد فناء مدتها.
الثاني: ما دامت سموات الآخرة وأرضها إلا ما شاء ربك من قدر وقوفهم في القيامة، قاله بعض المتأخرين.
الثالث: ما دامت السموات والأرض، أي مدة لبثهم في الدنيا، قاله ابن قتيبة.
الرابع: خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك من أهل التوحيد أنيخرجهم منها بعد إدخالهم إليها، قاله قتادة، فيكونون أشقياء في النار سعداء في الجنة، حكاه الضحاك عن ابن عباس، وروى يزيد بن أبي حبيب عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (يدخل ناس جهنم حتى إذا صاروا كالحممة أخرجوا منها وأدخلوا الجنة، فيقال: هؤلاء الجنةيون).
الخامس: إلا ما شاء من أهل التوحيد أن لا يدخلهم إليها، قاله أبونضرة يرويه مأثوراً عن النبي -صلى الله عليه وسلم-.

السادس: إلا ما شاء ربك من كل من دخل النار من موحد ومشرك أن يخرج منها إذا شاء، قاله ابن عباس.
السابع: أن الاستثناء راجع إلى قولهم ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهيقٌ﴾ إلا ما شاء ربك من أنواع العذاب التي ليست بزفير ولا شهيق مما لم يسم ولم يوصف ومما قد سمي ووصف، ثم استأنف: (ما دامت السموات والأرض) حكاه ابن الأنباري.
الثامن: أن الاستثناء واقع على معنى لو شاء ربك أن لا يخلدهم لفعل ولكن الذي يريد ويشاءه ويحكم به تخليدُهم. وفي تقدير خلودهم بمدة السموات والأرض وجهان: أحدهما: أنها سموات الدنيا وأرضها، ولئن كانت فانية فهي عند العرب كالباقية على الأبد فذكر ذلك على عادتهم وعرفهم⁽²¹⁾.

فمن هذه الأقوال يتجلى لنا معنى المشيمة في أصحاب النار الذين دخلوها، ولو أمعنا النظر في الأقوال الأنفة الذكر لوجدنا كل قول يتناسب مع الحالة التي قدرها الله لأهل النار.

فنجد أن مثلاً في حال يتكلم عن استحالة خروجهم منها كما ذكر ذلك في القول الثاني وهو: ما دامت سموات الآخرة وأرضها، وسموات وأرض الآخرة دائمة لن تفتن، فيكون بقاؤهم في النار بقاء خلود لا خروج منها.

(20) انظر النكت والعيون (تفسير الماوردي) لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري 2/ 504

(21) انظر النكت والعيون (تفسير الماوردي) لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري 2/ 505

ونجد في حال يتكلم عن أهل التوحيد الذين دخلوا النار بسبب غلبة سيئاتهم على حسناتهم، فاستحقوا دخول النار، ثم ذكر الله أنهم سيدخلون النار وسيخرجون منها بمشيئة الله، كما ذكر ذلك في القول الرابع: خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك من أهل التوحيد أنيخرجهم منها بعد إدخالهم إليها، قاله قتادة، فيكونون أشقياء في النار سعداء في الجنة.

ونجد في حال آخر يتكلم عن أهل التوحيد الذين استحقوا النار أن لا يدخلوها بمشيئة الله تعالى، وذلك ما ذكر في القول الخامس: إلا ما شاء من أهل التوحيد أن لا يدخلهم إليها، قاله أبو نضرة يرويه مأثوراً عن النبي - صلى الله عليه وسلم -.

أما القول السادس في أن الله سيخرج من النار كل موحد ومشرك، فهذا منافٍ لوعده الله الحق في أن من أشرك سيدخل النار ولن يخرج منها أبداً، فسيكون خالداً مخلداً فيها ولن يخرج منها أبداً بعزة الله وحكمته.

أما ما حكى في القول السابع ففيه وجه دلالة قريب مما جاء في الآية وذلك بأن أهل النار ينتقلون من عذاب إلى عذاب، ومن حال سيء إلى أسوأ، وهنا يتضح معنى المشيئة في الآية.

قال ابن جرير الطبري وقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ يعني تعالى ذكره بقوله: (خالدين فيها): لا بشئ فيها، ويعني بقوله: (ما دامت السموات والأرض) أبداً وذلك أن العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت: هذا دائم دوام السموات والأرض، بمعنى أنه دائم أبداً. وكذلك يقولون: هو باقٍ ما اختلف الليل والنهار وما سمر لنا سمر وما لألأت العفر بأذنابها يعنون بذلك كله أبداً. فخطبهم جل ثناؤه بما يتعارفون به بينهم فقال: (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض) والمعنى في ذلك خالدين فيها أبداً⁽²²⁾.

وكان بن زيد يقول في ذلك بنحو ما قلنا فيه، حدثني يونس قال أخبرنا بن وهب قال: قال بن زيد في قوله: (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض) قال: ما دامت الأرض أرضاً والسماء سماءً، ثم قال: (إلا ما شاء ربك) واختلف أهل العلم والتأويل في معنى ذلك فقال بعضهم: هذا استثناء استثناء الله في أهل التوحيد أنه يخرجهم من النار إذا شاء بعد أن أدخلهم النار، ذكر من قال ذلك حدثنا الحسن بن يحيى قال: أخبرنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله: (فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك) قال الله أعلم بشيئاه. وذكر لنا أن ناساً يصيبهم سفع من النار بذنوب أصابوها ثم يدخلهم الجنة. حدثنا بشر قال: ثنا يزيد قال: ثنا سعيد عن قتادة (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك) والله أعلم بشيئاه. ذكر لنا أن ناساً يصيبهم سفع من النار بذنوب أصابتهم ثم يدخلهم الله الجنة بفضل رحمته يقال لهم الجهنميون⁽²³⁾.

(22) انظر تفسير محمد بن جرير الطبري 117/12

(23) انظر تفسير محمد بن جرير الطبري 117/12

وذكر البغوي عدة معاني في معنى خلود أهل النار والمشيئة في ذلك فقال: أراد: إلا قدر مدة ما بين بعثهم إلى دخولهم جهنم يعني خالدون في النار إلا هذا المقدار⁽²⁴⁾.

وقال أيضاً: ما دامت سموات الجنة والنار وأرضها، وكلما علاك وأظلك فهو سماء وكلما استقرت عليه قدمك فهو أرض، وقال أهل المعاني: هذا عبارة عن التأييد على عادة العرب، يقولون: لا آتيك ما دامت السموات والأرض، ولا يكون كذا ما اختلف الليل والنهار، يعنون أبداً⁽²⁵⁾.

أما القول الراجح هو ما ذكره الإمام ابن كثير -رحمه الله- حيث قال: وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة حكاهما الشيخ أبو الفرج بن الجوزي في كتابه زاد المسير وغيره من علماء التفسير، ونقل كثيراً منها الإمام أبو جعفر بن جرير -رحمه الله- في كتابه. واختار هو ما نقله عن خالد بن معدان والضحاك وقتادة وابن سنان ورواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن أيضاً: أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ممن يخرجهم الله من النار بشفاعاة الشافعين من الملائكة والنبیین والمؤمنين حتى يشفعون في أصحاب الكبائر، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين فتخرج من لم يعمل خيراً قط، وقال: يوماً من الدهر (لا إله إلا الله) كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. بمضمون ذلك من حديث أنس وجابر وأبي سعيد وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ولا محيد له عنها.

الفصل الثاني: تحرير وجه الإشكال ودفعه الواقع في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَنَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا

مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ ۖ﴾.

في هذه الآية الكريمة نجد أن الإشكال أشد من الآية السابقة، فوجه الإشكال هو أنه من يستمع لظاهر الآية يشكل عليه حال أهل الجنة، فيظن أنهم لن يخلدوا فيها، وأنهم قد يُخرجوا من الجنة، ثم بعد ذلك يبدأ في تأويل خروجهم إلى أين وما مصيرهم بعد الخروج منها وما المدة التي سيمكثونها. لذا وجب الرد على هذا الإشكال بما يدفعه ويحليه لكل من أشكلت عليه هذه الآية.

يقول ابن جرير الطبري: وتأويل ذلك: وأما الذين سعدوا برحمة الله فهم في الجنة خالدون فيها ما دامت السماوات والأرض يقول: أبداً إلا ما شاء ربك. فاختلف أهل التأويل في معنى ذلك فقال بعضهم: إلا ما شاء ربك من قدر ما مكثوا في النار قبل دخولهم الجنة، قالوا: وذلك فيمن أخرج من النار من المؤمنين فأدخل الجنة⁽²⁶⁾.

واختلف أهل العربية في وجه الاستثناء في هذا الموضع فقال بعضهم في ذلك معنيان: أحدهما: أن تجعله استثناء يستثنيه ولا يفعله كقولك: والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك، وعزمك على ضربه، قال: فكذلك قال: (خالدون فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك) ولا يشاؤه.

(24) انظر تفسير البغوي 2/ 131

(25) المرجع السابق 2/ 402

(26) انظر تفسير محمد بن جرير الطبري 12/ 120

قال: والقول الآخر: أن العرب إذا استثنت شيئاً كثيراً مع مثله ومع ما هو أكثر منه كان معنى (إلا) ومعنى (الواو) سوى، فمن ذلك قوله: خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض سوى ما شاء الله من زيادة الخلود، فيجعل (إلا) مكان (سوى) فيصلح وكأنه قال: خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض سوى ما زادهم من الخلود والأبد.

ومثله في الكلام أن تقول: لي عليك ألف إلا الألفين اللذين قبله.

قال وهذا أحب الوجهين إلي؛ لأن الله لا يخلف وعده.

وقد وصل الاستثناء بقوله عطاء غير مجذوذ فدل على أن الاستثناء لهم بقوله في الخلود غير منقطع عنهم. وقال: آخر منهم بنحو هذا القول. وقالوا: جائز فيه وجه ثالث وهو: أن يكون استثنى من خلودهم في الجنة احتباسهم عنها ما بين الموت والبعث وهو البرزخ إلى أن يصيروا إلى الجنة، ثم هو خلود الأبد، يقول: فلم يغيبوا عن الجنة إلا بقدر إقامتهم في البرزخ.

وقال آخر منهم: جائز أن يكون دوام السماوات والأرض بمعنى الأبد على ما تعرف العرب، وتستعمل وتستثنى المشيئة من دأومها؛ لأن أهل الجنة وأهل النار قد كانوا في وقت من أوقات دوام السماوات والأرض في الدنيا لا في الجنة، فكأنه قال: خالدين في الجنة وخالدين في النار دوام السماء والأرض إلا ما شاء ربك من تعميرهم في الدنيا قبل ذلك.

يقول الطبري: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب القول الذي ذكرته عن الضحاك وهو: وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك من قدر مكثهم في النار من لدن دخلوها إلى أن أدخلوا الجنة، وتكون الآية معناها الخصوص؛ لأن الأشهر من كلام العرب في (إلا) توجيهها إلى معنى الاستثناء وإخراج معنى ما بعدها مما قبلها إلا أن يكون معها دلالة تدل على خلاف ذلك، ولا دلالة في الكلام -أعني في قوله إلا ما شاء ربك- تدل على أن معناها غير معنى الاستثناء المفهوم في الكلام فيوجه إليه. وأما قوله: (عطاء غير مجذوذ) فإنه يعني عطاء من الله غير مقطوع عنهم من قولهم: جذذت الشيء أجذه جداً إذا قطعته⁽²⁷⁾.

وقال القرطبي: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾: مادامت في موضع نصب على الظرف أي: دوام السماوات والأرض، والتقدير: وقت ذلك، واختلف في تأويل هذا فقالت طائفة منهم الضحاك: المعنى ما دامت سماوات الجنة والنار وأرضهما، والسماء كل ما علاك فأظلك، والأرض ما استقر عليه قدمك. وفي التزويل: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾⁽²⁸⁾. وقيل: أراد به السماء والأرض المعهودتين في الدنيا، وأجرى ذلك على عادة العرب في الإخبار عن دوام الشيء وتأبيده كقولهم: لا آتيك ما جن ليل أو سال سيل،

(27) انظر تفسير محمد بن جرير الطبري 120/12

(28) سورة الزمر 74

وما اختلف الليل والنهار، وما ناح الحمام، وما دامت السماوات والأرض، ونحو هذا مما يريدون به طولاً من غير نهاية، فأفهمهم الله تخليد الكفرة بذلك وإن كان قد أخبر بزوال السماوات والأرض⁽²⁹⁾.

ثم ذكر القرطبي في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾، في موضع نصب؛ لأنه استثناء ليس من الأول. وقد اختلف فيه على أقوال عشرة:

الأولى: أنه استثناء من قوله: (ففي النار) كأنه قال: إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك، وهذا قول رواه أبو نضرة عن أبي سعيد الخدري وجابر -رضي الله عنهما- وإنما لم يقل من شاء؛ لأن المراد العدد لا الأشخاص كقوله: (ما طاب لكم)، وعن أبي نضرة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: إلا من شاء ألا يدخلهم وإن شقوا بالمعصية.

الثاني: أن الاستثناء إنما هو للعصاة من المؤمنين في إخراجهم بعد مدة من النار، وعلى هذا يكون قوله: (فأما الذين شقوا) عاماً في الكفرة والعصاة، ويكون الاستثناء من (خالدين) قاله قتادة والضحاك وأبو سنان وغيرهم. وفي الصحيح من حديث أنس بن مالك قال: قال: رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (يدخل ناسجهم حتى إذا صاروا كالحممة أخرجوا منها ودخلوا الجنة، فيقال: هؤلاء الجهنميون).

الثالث: إن الاستثناء من الزفير والشهيق أي لهم فيها زفير وشهيق إلا ما شاء ربك من أنواع العذاب الذي لم يذكره، وكذلك لأهل الجنة من النعيم ما ذكر وما لم يذكر، حكاه ابن الأنباري.

الرابع: قال بن مسعود: (خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض) لا يموتون فيها ولا يخرجون منها (إلا ما شاء ربك) وهو أن يأمر النار فتأكلهم وتفنئهم، ثم يجدد خلقهم. قلت: وهذا القول خاص بالكافر، والاستثناء له في الأكل وتحديد الخلق.

الخامس: إن إلا بمعنى سوى كما تقول في الكلام: ما معي رجل إلا زيد، ولي عليك ألفا درهم إلا ألف التي لي عليك، قيل: فالمعنى ما دامت السماوات والأرض سوى ما شاء ربك من الخلود.

السادس: أنه استثناء من الإخراج وهو لا يريد أن يخرجهم منها، كما تقول في الكلام: أردت أن أفعل ذلك إلا أن أشاء غيره وأنت مقيم على ذلك الفعل، فالمعنى: أنه لو شاء أن يخرجهم لأخرجهم، ولكنه قد أعلمهم أنهم خالدون فيها، ذكر هذين القولين الزجاج عن أهل اللغة قال: ولأهل المعاني قولان آخران فأحد القولين: خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك من مقدار موقفهم على رأس قبورهم وللمحاسبة وقدر مكثهم في الدنيا والبرزخ والوقوف للحساب، والقول الآخر: وقوع الاستثناء في الزيادة على النعيم والعذاب، وتقديره: خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك من زيادة النعيم لأهل النعيم وزيادة العذاب لأهل الجحيم، قلت: فلاستثناء في الزيادة من الخلود على مدة كون السماء والأرض المعهودتين في الدنيا، واختاره الترمذي الحكيم أبو عبد الله محمد بن علي أي: خالدين فيها مقدار دوام السماوات والأرض وذلك مدة العالم، وللسماء والأرض وقت يتغيران فيه، وهو قوله سبحانه: (يوم تبدل الأرض غير الأرض) فخلق الله سبحانه الآدميين

(29) انظر الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي 99/9

وعاملهم واشترى منهم أنفسهم وأموالهم بالجنة، وعلى ذلك بايعهم يوم الميثاق، فمن وفى بذلك العهد فله الجنة، ومن ذهب برقبته يخلد في النار بمقدار دوام السماوات والأرض فإنما دامتا للمعاملة، وكذلك أهل الجنة خلود في الجنة بمقدار ذلك، فإذا تمت هذه المعاملة وقع الجميع في مشيئة الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينًا ۖ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۖ﴾⁽³⁰⁾ الدخان، فيخلد أهل الدارين بمقدار دوامهما وهو حق الربوبية بذلك المقدار من العظمة، ثم أوجب لهم الأبد في كلتا الدارين لحق الأحدية، فمن لقيه موحداً لأحدثه بقي في داره أبداً، ومن لقيه مشركاً بأحدثه إلهاً بقي في السجن أبداً، فأعلم الله العباد مقدار الخلود ثم قال: إلا ما شاء ربك من زيادة المدة التي تعجز القلوب عن إدراكها؛ لأنه لا غاية لها، فبالاعتقاد دام خلودهم في الدارين أبداً وقد قيل: إن (إلا) بمعنى الواو، قاله الفراء وبعض أهل النظر وهو الثامن والمعنى: وما شاء ربك من الزيادة في الخلود على مدة دوام السماوات والأرض في الدنيا، وقد قيل في قوله تعالى: (إلا الذين ظلموا) أي: ولا الذين ظلموا، وقال الشاعر: وكل أخ مفارقه أخوه لعمر أبيك إلا الفرقدان⁽³¹⁾

أي والفرقدان، وقال أبو محمد مكي: وهذا قول بعيد عند البصريين أن تكون إلا بمعنى الواو، وقيل: معناه كما شاء ربك كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۖ﴾⁽³²⁾ أي: كما قد سلف وهو التاسع العاشر وهو أن قوله تعالى: (إلا ما شاء ربك) إنما ذلك على طريق الاستثناء الذي ندب الشرع إلى استعماله في كل كلام فهو على حد قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ۖ﴾⁽³³⁾ فهو استثناء في واجب وهذا الاستثناء في حكم الشرط كذلك كأنه قال: إن شاء ربك فليس يوصف بمتصل ولا منقطع، ويؤيده ويقويه قوله تعالى: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُورٍ ۖ﴾⁽³⁴⁾ ونحوه عن أبي عبيد قال: تقدمت عزيمة المشيئة من الله تعالى في خلود الفريقين في الدارين⁽³⁴⁾. وقال النسفي: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۖ﴾ هو استثناء من الخلود في نعيم الجنة، وذلك أن لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وهو رؤية الله تعالى ورضوانه، أو معناها إلا من شاء أن يعذبه بقدر ذنبه قبل أن يدخله الجنة⁽³⁵⁾.

وسئل ابن تيمية عن قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ۖ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۖ﴾.

(30) سورة الدخان 38-39

(31) هذا البيت لعمر بن معد يكرب الزبيدي، انظر جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي 13/1.

(32) سورة النساء 22

(33) سورة الفتح 27

(34) انظر تفسير القرطبي 99/9

(35) انظر مدارك الترتيل وحقائق التأويل تفسير النسفي، لعبد الله بن أحمد بن محمود النسفي أبو البركات 513/1

فأجاب: الحمد لله قال طوائف من العلماء أن قوله: (ما دامت السماوات والأرض) أراد بها سماء الجنة وأرض الجنة كما ثبت في الصحيحين عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (إذا سألتكم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة وسقفه عرش الرحمن) وقال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (١٠٥) هي أرض الجنة.

وعلى هذا فلا منافاة بين انطواء هذه السماء وبقاء السماء التي هي سقف الجنة، إذ كلما علا فإنه يسمى في اللغة سماء كما يسمى السحاب سماء والسقف سماء. وأيضاً فإن السماوات وأن طويت وكانت كالمهل واستحالت عن صورتها فإن ذلك لا يوجب عدمها وفسادها بل أصلها باق بتحويلها من حال إلى حال كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ وإذا بدلت فإنه لا يزال سماء دائمة وأرض دائمة -والله أعلم-⁽³⁶⁾.

وقال ابن الجوزي: فأما الاستثناء في حق أهل الجنة ففيه ستة أقوال:

أحدها: أنه استثناء لا يفعله.

والثاني: أن إلا بمعنى سوى.

والثالث: أنه يرجع إلى وقوفهم للحساب ولبثهم في القبور.

والرابع: أنه بمعنى إلا ما شاء أن يزيدهم من النعيم الذي لم يذكر.

والخامس: أن (إلا) كـ(ما).

والسادس: أن الاستثناء يرجع إلى لبث من لبث في النار من الموحدين ثم أدخل الجنة، قاله ابن عباس والضحاك ومقاتل، قال ابن قتيبة: فيكون الاستثناء من الخلود مكث أهل الذنوب من المسلمين في النار، فكأنه قال: إلا ما شاء ربك من أخرج المذنبين إلى الجنة، وخالدين في الجنة إلا ما شاء ربك من إدخال المذنبين النار مدة. وخلاصة القول في ذلك هو:

الأول: ما ذكره الضحاك بقوله: وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك من قدر مكثهم في النار من لدن دخلوها إلى أن أدخلوا الجنة. وهذا اختيار الطبري

الثاني: ما ذكر عن الضحاك أيضاً وهو: ما دامت سماوات الجنة والنار وأرضهما، والسماء كل ما علاك فأظلك، والأرض ما استقر عليه قدمك. وهذا ما ذكره القرطبي وابن تيمية.

الثالث: ما ذكره النسفي بقوله: هو استثناء من الخلود في نعيم الجنة، وذلك أن لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وهو رؤية الله تعالى ورضوانه.

الفصل الأول: الإشكال الوارد في النار هل هي أبدية أم فانية؟

كثر الكلام حول نار جهنم وما مصيرها وهل هي أبدية مخلدة أم أنها فانية ولا بقاء لها، وكان للناس في ذلك ثمانية أقوال هي:

(36) انظر كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس 109/15

أولاً: أن من دخلها لا يخرج منها أبد الآبدن، وهذا قول الخوارج والمعتزلة. وهم بقولهم هذا يثبتون بقاء النار، لكن الإشكال في خلود من يدخل النار فهذا ليس بصحيح؛ لأن هناك من عصاة المسلمين من سيدخل النار ثم يخرج منها بشفاعة الشافعين.

ثانياً: أن أهلها يعذبون فيها مدة ثم تنقلب عليهم وتبقى طبيعة نارية لهم يتلذذون بها لموافقتها لطبيعتهم. وهذا قول إمام الاتحادية ابن عربي الطائي. قال في فصوصه: الثناء بصدق الوعد لا بصدق الوعيد، والحضرة الإلهية تطلب الثناء المحمود بالذات فيثنى عليها بصدق الوعد لا بصدق الوعيد بل بالتجاوز. ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾⁽³⁷⁾، لم يقل وعيده، بل قال: ﴿وَنَجَاوُزُ عَنْ سِعَاتِهِمْ﴾⁽³⁸⁾، مع أنه توعد على ذلك، وأثنى على إسماعيل بأنه كان صادق الوعد، وقد زال الإمكان في حق الحق لما فيه من طلب المرجح.

الثالث: قول من يقول: إن أهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود ثم يخرجون منها ويخلفهم فيها قوم آخرون، وهذا القول حكاه اليهود للنبي -صلى الله عليه وسلم- فأكذبهم فيه، وقد أكذبهم الله تعالى في القرآن فيه فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾⁽³⁹⁾، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ أَقْبَلُوا مِنِّي أُولَئِكَ فِي هِيَ كَالْأَشْيَاءِ قُلْ إِنَّمَا اللَّهُ يَخْتَارُ مَنِ الْيَحْيَى بَيْنَهُمْ أَمْ يَحْكُمُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾⁽⁴⁰⁾، فهذا القول إنما هو قول أعداء الله اليهود، فهم شيوخ أربابه والقائلين به، وقد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام على فساده. قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾⁽⁴¹⁾، وقال: ﴿وَمَا هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرِجِينَ﴾⁽⁴²⁾، وهذا أبلغ ما يكون في الإخبار عن استحالة دخولهم الجنة.

الرابع: قول من يقول: يخرجون منها وتبقى ناراً على حالها ليس فيها أحد يعذب. والخامس: قول من يقول: بل تفتن بنفسها؛ لأنها حادثة بعد أن لم تكن، وما ثبت حدوثه استحالة بقاءه وأبديته. وهذا قولهم بن صفوان وشيعته، ولا فرق عنده في ذلك بين الجنة والنار. السادس: قول من يقول: تفتن حياتهم وحركاتهم ويصيرون جماداً لا يتحركون ولا يحسون بألم. وهذا قول أبي الهذيل العلاف إمام المعتزلة طرداً لامتناع حوادث لا نهاية لها، والجنة والنار عنده سواء في هذا الحكم.

(37) سورة إبراهيم / 47

(38) سورة الأحقاف / 16

(39) سورة البقرة / 80

(40) سورة آل عمران / 23-24

(41) سورة البقرة / 167

(42) سورة الحجر / 48

السابع: أن الله يخرج منها من يشاء، كما جاء في الحديث يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَخْرِجُوا مِنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَيُخْرِجُونَ مِنْهَا قَدْ اسْوَدُّوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ أَوْ الْحَيَاةِ -شَكَّ مَالِكٌ- فَيَنْتَبِثُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي جَانِبِ السَّيْلِ، أَلَمْ تَرَ أَنَهَا تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً؟) ⁽⁴³⁾، ثم يبقِيها شيئاً، ثم يَفْنِيها، لأنه جعل لها أمداً تنتهي إليه.

الثامن: أن الله تعالى يخرج منها من شاء، كما ورد في السنة، ويبقى فيها الكفار، بقاء لا انقضاء له، كما قال الشيخ. وما عدا هذين القولين الأخيرين ظاهر البطلان. وهذان القولان لأهل السنة ينظر في دليلهما .

فمن أدلة القول الأول منهما: قوله تعالى: ﴿ قَالَ النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ ^(١٢٨) ⁽⁴⁴⁾. وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَفَعُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ ^(١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ^(١٠٧) . ولم يأت بعد هذين الاستثناءين ما أتى بعد الاستثناء المذكور لأهل الجنة، وهو قوله: ﴿ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوزٍ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ ^(١٢٣) . وهذا القول، -أعني القول بفناء النار دون الجنة- منقول عن عمر، وابن مسعود، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وغيرهم.

وقد روى عبد بن حميد في تفسيره المشهور، بسنده إلى عمر -رضي الله عنه-، أنه قال: لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عاجل، لكان لهم على ذلك وقت يخرجون فيه، ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ ^(١٢٣) . قالوا: والنار موجب غضبه، والجنة موجب رحمته. وقد قال -صلى الله عليه وسلم-: (لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش إن رَحِمْتِي غَلَبَتْ غَضَبِي). رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-. قالوا: والله سبحانه يخبر عن العذاب أنه ﴿ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ^(١٥) (وَأَلِيمٍ) (وعقيم)، ولم يخبر ولا في موضع واحد عن النعيم أنه نعيم يوم. وقد قال تعالى: ﴿ عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ . وقال تعالى حكاية عن الملائكة ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ . فلا بد أن تسع رحمته هؤلاء المعذنين، فلو بقوا في العذاب لا إلى غاية لم تسعهم رحمته. وقد ثبت في الصحيح تقدير يوم القيامة بخمسين ألف سنة، والمعذبون فيها متفاوتون في مدة لبثهم في العذاب بحسب جرائمهم، وليس في حكمة أحكم الحاكمين ورحمة أرحم الراحمين أن يخلق خلقاً يعذبهم أبد الآباد عذاباً سرمداً لا نهاية له. وأما أنه يخلق خلقاً ينعم عليهم ويحسن إليهم نعيماً سرمداً، فمن مقتضى الحكمة. والإحسان مراد لذاته، والانتقام مراد بالعرض.

(43) أخرجه البخاري باب: باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال 16/1

(44) سورة الأنعام/ 128

قالوا: وما ورد من الخلود فيها، والتأبيد، وعدم الخروج، وأن عذابها مقيم، وأنه غرام كله حق مُسَلَّم لا نزاع فيه، وذلك يقتضي الخلود في دار العذاب ما دامت باقية، وإنما يخرج منها في حال بقائها أهل التوحيد، ففرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله، وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه.

ومن أدلة القائلين ببقائها وعدم فنائها: قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (٣٧)، ﴿لَا يُفْتَرَعَنَّهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ (٧٥)، ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ (٣٠)، ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾، ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾، ﴿إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾ (٦٥)، أي مقيما لازما.

وقد دلت السنة المستفيضة أنه يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله. وأحاديث الشفاعة صريحة في خروج عصاة الموحدين من النار، وأن هذا حكم مختص بهم، فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم، ولم يختص الخروج بأهل الإيمان. وبقاء الجنة والنار ليس لذاكما، بل ببقاء الله لهما.

الفصل الثاني: الآيات والأحاديث الواردة في خلود أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار.

أولاً: الآيات الدالة على خلود أهل الجنة في الجنة، وهي على سبيل المثال لا الحصر:

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (٥٦) (45)
 قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُنَاقِبِينَ فِي جَنَّتٍ وَعِثُونَ﴾ (٤٥) أَذْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (46)
 قَالَ تَعَالَى: ﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (٥٤) (47)
 قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (١٥) (48)
 قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَٰئِكَ مِنْ الْأَمْهَجِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (49)
 قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ (٧٥) جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦) (50)

(45) سورة الدخان / 56

(46) سورة الحجر / 45-46-47-48

(47) سورة ص / 53-54

(48) سورة آل عمران / 15

(49) سورة التوبة / 100

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُؤْتِيَنَّهُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾ (٥٨) ﴿٥١﴾

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ (٨) ﴿٥٢﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا
قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَابِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ
جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٩) ﴿٥٣﴾
قَالَ تَعَالَى: ﴿رَسُولًا يَنْتَلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِنْ
بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ (١١) ﴿٥٤﴾

ثانياً: الأحاديث الدالة على خلود أهل الجنة في الجنة، وهي على سبيل المثال لا الحصر:

حدثنا عمر بن حفص بن غياث حدثنا أبي حدثنا الأعمش حدثنا أبو صالح عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيَنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَشْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت، وكلُّهم قد رآه، ثم يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت، وكلُّهم قد رآه، فيذبح، ثم يقول: يا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، ثم قرأ: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا، ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٥).

حدثنا علي بن عبد الله حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا أبي عن صالح حدثنا نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: (يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ ثُمَّ يَقُومُ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ: يَا أَهْلَ النَّارِ لَا مَوْتَ وَيَا أَهْلَ الْجَنَّةِ لَا مَوْتَ خُلُودٌ) (٥٦).

أَخْبَرَنَا عُمَرُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ سِنَانٍ الطَّائِيُّ بِمَنْبَحٍ قَالَ: حَدَّثَنَا فَرْجُ بْنُ رَوَاحَةَ الْمَنْبِجِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا زُهَيْرُ بْنُ مُعَاوِيَةَ قَالَ: حَدَّثَنَا سَعْدُ الطَّائِيُّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو الْمُدَلَّةِ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مَوْلَى أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ: أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا كُنَّا عِنْدَكَ رَقَّتْ قُلُوبُنَا وَكُنَّا مِنْ أَهْلِ الْآخِرَةِ، وَإِذَا فَارَقْنَاكَ أَعْجَبَتْنَا الدُّنْيَا وَشَمَمْنَا النِّسَاءَ وَالْأَوْلَادَ، فَقَالَ: (لَوْ تَكُونُونَ عَلَى كُلِّ حَالٍ عَلَى الْحَالِ الَّذِي أَنتُمْ عَلَيْهِ عِنْدِي لَصَافَحْتُكُمْ الْمَلَائِكَةُ بِأَكْفُكُمْ، وَلَوْ أَنَّكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ وَلَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَجَاءَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ كَيْ يَغْفِرَ لَهُمْ، قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَدَّثْنَا

(50) سورة طه / 75-76

(51) سورة العنكبوت / 58

(52) سورة لقمان / 8-9

(53) سورة التغابن / 9

(54) سورة الطلاق / 11

(55) رواه البخاري باب: (وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ) 1760/4

(56) رواه البخاري باب: يَدْخُلُ الْجَنَّةَ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ 2396/5

عَنِ الْجَنَّةِ مَا بَنَاهَا قَالَ: لَبَنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ وَلَبَنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَمِلَاطُهَا الْمِسْكُ الْأَذْفَرُ وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ أَوْ الْيَاقُوتُ وَثُرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ فَلَا يَبْئُوسُ وَيَخْلُدُ لَا يَمُوتُ لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ، ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ إِلَّا إِمَامُ الْعَادِلِ وَالصَّائِمِ حِينَ يُفْطِرُ وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ تُحْمَلُ عَلَى الْعِمَامِ وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاوَاتِ وَيَقُولُ الرَّبُّ وَعَزَّيْلًا نَصْرَتِكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ (57).

ثالثاً: الآيات الدالة على خلود أهل النار في النار، وهي على سبيل المثال لا الحصر:

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١١١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (58)

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ (١١٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (59)

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (60)

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافٍ﴾ (61)

رابعاً: الأحاديث الدالة على خلود أهل النار في النار، وهي على سبيل المثال لا الحصر:

حدثنا عمر بن حفص بن غياث حدثنا أبي حدثنا الأعمش حدثنا أبو صالح عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيَنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَشْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت، وكلُّهم قد رآه، ثم يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت، وكلُّهم قد رآه، فيُدْبِحُ، ثم يقول: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، ثم قرأ: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وهو هؤلاء في غفلة أهل الدنيا، ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (62).

(57) رواه ابن حبان في صحيحه 396/16

(58) سورة البقرة 161-162

(59) سورة النساء 168-169

(60) سورة التوبة 68

(61) سورة فاطر 36

(62) رواه البخاري باب: (وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ) 1760/4

حدثنا علي بن عبد الله حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا أبي عن صالح حدثنا نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ ثُمَّ يَقُومُ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ: يَا أَهْلَ النَّارِ لَا مَوْتَ وَيَا أَهْلَ الْجَنَّةِ لَا مَوْتَ خُلُودٌ) (63).

حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا هشام حدثنا قتادة عن أنس -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال لي خليفة، حدثنا يزيد بن زريع حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (يَجْتَمِعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُونَ: لَوْ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَبُو النَّاسِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَسَجَدَ لَكَ مَلَائِكَتُهُ وَعَلَّمَكَ كُلَّ شَيْءٍ، فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ حَتَّى يَرْيَحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا) فيقول: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ ذَنْبَهُ فَيَسْتَحِي، ائْتُوا نوحًا فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَيَأْتُونَهُ فيقول: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ سَوَالَهُ رَبَّهُ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ فَيَسْتَحِي، فيقول: ائْتُوا خَلِيلَ الرَّحْمَنِ، فَيَأْتُونَهُ فيقول: لَسْتُ هُنَاكُمْ، ائْتُوا موسى عَبْدًا كَلَّمَهُ اللَّهُ وَأَعْطَاهُ التَّوْرَةَ، فَيَأْتُونَهُ فيقول: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ قَتْلَ النَّفْسِ بِغَيْرِ نَفْسٍ فَيَسْتَحِي مِنْ رَبِّهِ فيقول: ائْتُوا عيسى عَبْدَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ وَكَلِمَةَ اللَّهِ وَرُوحَهُ، فيقول: لَسْتُ هُنَاكُمْ ائْتُوا مُحَمَّدًا -صلى الله عليه وسلم- عَبْدًا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَأْتُونِي فَأَنْطَلِقُ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي فَإِذَا رَأَيْتَ رَبِّي وَقَعْتَ سَاجِدًا فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يُقَالُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ وَسَلِّ تُعْطَهُ وَقُلْ يُسْمَعُ وَاشْفَعْ تُشْفَعُ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحْدُثُ لِي حَدًّا فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ إِلَيْهِ فَإِذَا رَأَيْتَ رَبِّي مِثْلَهُ ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحْدُثُ لِي حَدًّا فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَقُولُ: مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ وَوَجِبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ. قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ يَعْنِي قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: (خَالِدِينَ فِيهَا) (64).

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا محمد بن بشر عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال: رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (يُؤْتَى بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُوقَفُ عَلَى الصِّرَاطِ فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيُطْلَعُونَ خَائِفِينَ وَجَلِينَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنْ مَكَانِهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ فَيُطْلَعُونَ مُسْتَبْشِرِينَ فَرِحِينَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنْ مَكَانِهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ، فَيُقَالُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالُوا: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ، قَالَ: فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيَذْبَحُ عَلَى الصِّرَاطِ، ثُمَّ يُقَالُ: لِلْفَرِيقَيْنِ كِلَاهُمَا: خُلُودٌ فِيمَا تَجِدُونَ لَا مَوْتَ فِيهَا أَبَدًا) (65).

وهناك أحاديث تتكلم عن خلود من قام بعمل فيه معصية لله عظيمة كحديث قاتل نفسه الذي يرويه أبو هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مَخْلَدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سِنًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مَخْلَدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجُأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مَخْلَدًا فِيهَا أَبَدًا) (66).

(63) رواه البخاري باب: يَدْخُلُ الْجَنَّةَ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ 2396/5

(64) رواه البخاري باب قوله تعالى: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) 1624/4

(65) رواه ابن حبان في السنن 1447/2

(66) رواه البخاري باب شَرْبِ السَّمِّ وَالِدَوَاءِ بِهِ وَمَا يَخَافُ مِنْهُ وَالْخَبِيثُ 2179/5